٦

علم نفس

قرائى جديد

الخوف الجميل

كانا يتمشيان على النيل.. والشمس تغيب فى الأفق.. والنسيم يداعب الشجر قال وهو يمسك بيدها فى حب

– أتعرفين ماذا تحت قدمك الآن ؟

– ماذا تعنى ؟

– أتعرفين على أى شىء تقفين.. إن تحت قدمك الصغيرة هذه أربع مدن وثمانية عصور.. وثمان حضارات.. وسبعة آلاف عام من التاريخ.

هل تصدقين أن تحت قدمك عصرا رومانيا وعصرا فاطميا وعصرا مملوكيا وعصرا تركيا وعصرا قبطيا وعصراً إسلامياً وعصرا فرعونيا وعصرا حجريا.. أكاد أرى المواكب تخرج فى أبهتها ودروعها.. وأكاد أسمع صهيل الخيل وجلجلة السلاح.. وأكاد أرى الدم يسيل.. والناس تختصم وتتصارع وتتحارب وتتزوج وتتاجر وتهاجر.. وأكاد أرى الدموع تلمع على خدود ما تلبث أن تغدو ترابا.. وأكاد أرى نظرات الغرور ما تلبث أن تأكلها الديدان.. والمنتصر يرقد إلى جوار المهزوم والقاتل يتمدد إلى جوار قتيله.. والهاجر الغادر ما يلبث أن يسحب عليه الزمن ستار الهجر فيغدو مهجورا هو الآخر لا حس ولا أثر ولا خبر.

أين ذهب الغضب.. أين ذهب الجنون.. أين رقد اليأس.. أين

نامت الفتن.. ماذا بقى من هذه النيران المشتعلة فى الصدور؟

قالت الفتاة وهى ساهمة تنظر إلى التراب تحت قدميها.

– ترى هل يبقى شىء من حبنا.. أم أننا ماضون نحن أيضا إلى لا شىء؟ وقال وهو يضحك :

– فى عصر السرعة الذى نعيشه يكاد يكون الحب فستانا تتعلق به الفتاة لمدى لبسة واحدة.. ثم بعد ذلك تتغير الموضة.

– هل هذا رأيك؟

– هذا حال أكثر الناس.

– وهل نحن من أكثر الناس؟

– كل الذين تحت قدمك.. قد اقسموا – وهم يبكون – أن ما بينهما كان شيئا خاصا نادرا ليس له مثيل.

– ألم يصدق بعضهم؟

– نعم.. أقل القليل.. الذين استودعوا عند الله شيئا.. فالله وحده هو الذى يحفظ الودائع.

وأردف وهو ينظر إلى السماء الممدودة.

– الذين أحبوا بعضهم فيه ونظروا إلى بعضهم فى مرآته.. الذين أفرشوه أسرارهم وأسلموه اختيارهم.. فأصبح مرادهم مراده.. هؤلاء أهله.. الذين هم إليه.. وليسوا للتراب.

قالت وهى مازالت على شرودها تنظر فى داخل عينيه :

– وأين نحن من هؤلاء؟

قال وهو ما يزال ينظر إلى السماء الممدودة :

– الكل يدعى أنه من هؤلاء.. ولكن الزمن وحده هو الذى يكشف صدق الدعوى.. ولهذا خلق الله الدنيا ليتميز أهل الدعاوى

من أهل الحقائق.

– ألا ترى نفسك مخلصا؟

– لست من الغرور بحيث أسبق الزمن إلى الحكم.. فما أكثر ما يُخدع الإنسان في نفسه.. وما أكثر ما يُستدرج إلى ثقة في النفس مبالغ فيها.. ثم يأتي الزمن فيكذبه على لسانه.

وشرد قليلا ثم أردف :

– الإخلاص هو أخفى الخفايا.. وهو سر لا يكاد يطلع عليه إلا الله.. ونحن نأتي به إلى الدنيا أو نأتي بدونه ولا يعلم سرنا إلا خالقنا.

قالت ويدها ترتجف في يده :

– إني خائفة.

قال وهو يمشي الهوينا :

– أنا أعيش في هذا الخوف.. إنه الخوف الجميل.. الخوف من أن يظهر المكتوم.. فإذا به على غير ما نرضى وعلى غير ما نحب وهو خوف يدفع كلا منا إلى إحسان العمل.. وهو خوف لا يوجد إلا عند الاتقياء.. لأنه خوف يحمي أصحابه من الغرور.. ألم يقل أبو بكر.. مازلت أبيت على الخوف وأصحو على الخوف حتى لو رأيت إحدى قدمي تدخل الجنة فإني أظل خائفا حتى أرى الثانية تدخل.. فلا يأمن مكر الله إلا القوم الضالون.

– ولماذا يمكر بنا الله؟

– مكر الله ليس كمكرنا.. فنحن نمكر لنخفي الحقيقة أما الله فيمكر ليظهرها وهو يمكر بالمدعي حتى يظهره على حقيقة نفسه فهو خير الماكرين.

– ألا توجد راحة؟

– ليس دون المنتهى راحة.

– ومتى نبلغ المنتهى.

– عنده.. أليس هو القائل.

﴿وإن إلى ربك المنتهى﴾.